

تفاحة...

أفاق من نومه وإحساس بخواء يسكن معدته، وبخواء في الزمن.. في الوقت. فتح عينيه على لا شيء، أجال ببصره في أرجاء الغرفة المظلمة لئلا سبب.. وصمت يصدر ضجيجاً مكتوماً لأمعنى له يملأ أذنيه.

نهض من سريره بلا غاية، وضع قدميه في خفين كانتا تحت السرير، وبتلقائية اتجه صوب المطبخ.

كان وقع الخفين وهو يجتاز الكوريدور في العتمة يشي بتردد غامض، كمن ذاهب إلى معركة لا يريد خوضها. كان يتلمس الجدران بحذر كمن تقع يديه على ما يخافه.

في المطبخ، الصمت مطبقاً إلا من هدير مكتوم يصدره البراد، وصرير حشرات الليل، وعسيس الجنادب المتأتي من البعيد، وهففة إطارات لسيارة وحيدة عبرت بسرعة كلص، ومن خلال النافذة رمت بحزمة ضوء وولت مسرعة، أخذة ضوءها معها.

فتح باب البراد وراح يجول ببصره دون هداية في زواياه وعلى رفوفه. كانت كرتونة بيض فيها بضع بيضات متابعات، وطبق لوبياء نصف فارغ وتعمه فوضى التلطيخ، وصحن فاكهة تتدلى منه في الفراغ البارد خصلة عنب، وعلى جانبه ثلاث تفاحات حمراء. بتلقائية، التقط تفاحة وقضمها بسرعة وهو يتابع التجوال ببصره في أرجاء البراد، ويحصي دونما سبب موجوداته ولا يختار. كان ضوء البراد الخافت يرسم ظل الرجل المنحني على أرضية المطبخ، وعلى أعلى الجدار أشكال مبهمه لتلال هي ظلال لأكياس مرصوفة في الرف العلوي، محكمة الإغلاق. وإلى السقف انتصبت أعمدة كأعمدة الهياكل، وهي ظلال لتقنية كاتشاب ولتقنيته مرطبات.

الظل المنحني للرجل انتصب كالمارد.. اعتدل الرجل في وقفته بعد أن التقط تفاحة أخرى بيده الثانية، فيما يتابع بيده الأخرى قضم التفاحة الأولى وهو يوميء برأسه لذة.

أغلق باب البراد فاختمى ظل المارد، و ظلال التلال والأعمدة، وحل ظلام دامس في أرجاء المطبخ. اليد المعتادة على المكان وقعت على زر المصباح الكهربائي فأضيء المكان بالكامل. قرب كرسي مركونة إلى جانب الحائط، جلس عليه وهو يتابع نهش التفاحة الأولى بألية ويوميء برأسه وهو يلوك التفاح الحلو المهشم بين أضراسه، وأفكار بلا سبب تتوالى في عقله، وأغنية لم يرددتها منذ زمن راحت تكرر ذاتها في أذنيه.. وصور وأشكال، وأحداث ماضية فرضت نفسها على ذاكرة الآن. ومن تراكم ضباب الأيام برزت ابتسامة لإمرأة هجرت صباحه إلى الزمان، وتركته وحيدا في رحلته إلى الكبير، وللون الباهت للشعر، ولابتسامة تحمل ألف معنى للعبوس..

السائل الحلو البارد للتفاح المهشم تحت أضراسه أشعره بلذة، وبأن إحساسه باللا وقت واللا زمان يغادره. للتو بدأ الزمان الخاوي بالإمتلاء، وضجيج الصمت المكتوم أصبح له وقع جميل في أذنيه. انتهى من التفاحة الأولى بعد أن أصبحت بقايا تفاحة. رماها في المجلى الذي أضحى أمامه، أمسك التفاحة الأخرى بكلتا يده وقضمها بنشاط، فإحساسه بخواء المعدة غادره أيضاً. شعر بوخزة حادة في وسط صدره. توقف للحظات عن المضغ، وضع يده على مكان الألم الذي سرعان ما تلاشى، نظر إلى التفاحة في يده، رماها بابتسامة حلوة وسؤال: من الغبي الذي جعلك رمزا وأداة لأول خطيئة، والله لم يذكر في الكتب المقدسة نوع الشجرة التي أوصى آدم أن لا يقربها؟. الأناك فاتنة و لذيذة؟! ربما لأنه هناك خيط رفيع بين اللذة والخطيئة فراح الإعتقاد خطأ أنك أنت الأداة، لأن كلك حلوة ولذيذة؟. أو لأنك تشبهين القلب ويدي امرأة، والقلب صاحب هوى، ويدي الإمراة وعاء جاهز لموضع قلب؟؟.

الوخزة الحادة في صدره عاودته، أدخل يده من خلال طية البيجامة ليتلمس أضلاعه، وقعت أصابعه على الجرح الممتد من أسفل رقبته إلى أول البطن. تذكر عملية القلب المفتوح التي أجريت له منذ شهر إثر نوبة قلبية مفاجئة أعقبها غيبوبة أخبر عنها. وتذكر الإبتسامة الحلوة لامرأة لم تغادره، وقبل العملية لم يكن يحب التفاح ولا يستسيغه، و انتبه إلى أنها ليست هي الليلة الأولى الذي يفيق فيها جائعاً. وأنه بعد فتح قلبه لم يعد يطفى جوعه الليلي إلا التفاح.

غسل يديه وفمه، أطفأ مصباح المطبخ، وبتلقائية اتجه عائداً إلى غرفة النوم، اجتاز الكوريدور بسرعة وبثبات، وكانت وقع أقدامه لا تنشي إلا بالعزم كمن هو ذاهب إلى معركة، الآن يود خوضها...

جهاد شاهين..